التطور التاريخي للسياحة في فلسطين

عبد القادر إبراهيم حماد(*)

عودة الفليت(**)

سجلت السنوات الماضية زيادة ملحوظة في الاهتمام بالسياحة في مختلف مناطق العالم، حتى أصبحت هذه الصناعة من أهم الموارد الاقتصادية في كثير من الدول، خاصة النامية منها؛ إذ تدخل هذه الموارد في قائمة الصادرات غير المنظورة، فهي تعمل على نمو الدخل القومي، والتخفيض من عجز ميزان المدفوعات، وذلك عن طريق دخول العملات والاستثمارات الأجنبية، كما تعمل على إيجاد فرص عمل جديدة، وارتفاع مستوى معيشة الأفراد، إضافة إلى الآثار الاجتماعية والثقافية التي يتبادلها السياح في تنقلاتهم مع شعوب البلدان السياحية (فليجة، ١٩٩٩، ص١٨٨).

وقد شهدت السنوات الخمسون الماضية تدفق السياحة العالمية إلى المنطقة؛ إذ ارتفع عدد السياح الوافدين من ٢٥ مليونا عام ١٩٥٠ إلى ٦٦٤ مليونا عام ١٩٩٩، وكان معدل النمو السنوي في ذلك العام ٧٪، وازداد نحو ٤,٤٪ عن عام ١٩٩٨، وارتفعت عوائد السياحة عام ١٩٩٩ إلى نحو ٣,١٪؛ أي نحو ٤٥٥ مليون دولار أمريكي.

لقد أصبحت الصناعة السياحية عاملا اقتصاديا حيويا وديناميا في كثير من الدول، خاصة مع هبوط حصة السوق السياحي التقليدي في أمريكا وأوربا إلى مناطق جذب سياحي جديدة. وقد سجلت منطقة الشرق الأوسط أعلى معدل للنمو السنوي للسياح القادمين بين عامي ١٩٩٥ و١٩٩٩ التي بلغت نحو

(*) أستاذ الجغرافيا السياحية المساعد، رئيس قسم الجغرافيا، جامعة الأقصى، غزة.

(**) جامعة القدس المفتوحة، غزة، فلسطين.

٩,٥٪، تليها منطقة جنوب آسيا ٧,٧٪، ثم أفريقيا ٧,٥٪ (حماد ٢٠٠٣، ص١٠٣).

وتعد فلسطين من البلدان النامية ذات التاريخ السياحي العريق، فصناعة السياحة فيها مغرقة في القدم، حتى يمكن القول إنها المنطقة السياحية الأولى في التاريخ التي جذبت السياح والحجاج والزائرين منذ أقدم العصور حتى يومنا الحالي.

وتتميز فلسطين بأهميتها السياحية، لموقعها الجغرافي المتميز، ومكانتها الروحية المقدسة، لدى جميع الطوائف الدينية، وذلك برغم التقلبات السياسية الخطيرة التي تعرضت لها في خلال العقود الماضية، وما تمخض عنها من اعتداءات بشرية استعمارية، كان هدفها السيطرة على هذه البقعة من العالم، بهدف التحكم في عقدة المواصلات وجسور الاتصالات، مستعينة على ذلك بشتى الادعاءات التي منها الدين أحيانا تجنيا عليه، ومجافاة للحقيقة. غير أن الجميع ارتد من حيث أتى، وبقى العرب أهل الأرض، أرض فلسطين، مهبط الرسالات.

ولم تتوقف الحركة السياحية إلى فلسطين على مدار التاريخ، برغم التقلبات والظروف الصعبة التي كانت تمر بها البلاد جراء غزو خارجي، أو اعتداء غاشم لئيم. فالحجاج كانوا يجدون وجهتهم إلى الأماكن المقدسة بدون عناء، فكانوا يجدون من أهلها كل الترحاب؛ وهو ما أغرى كثيرين منهم بالاستقرار في البلاد.

وقد وجد في مذكرات الحجاج منذ القدم، حتى اليوم، وصف كثير عن زيارة فلسطين، فقد جاء في مذكرات حاج إيطالي يدعى أنطونين، زار المغطس في القرن السادس الميلادي، الوصف الآتي: "في يوم الغطاس، هرعت حشود كبيرة من المؤمنين، لا يقدر عددهم، من سائر الأنحاء، إلى نهر الأردن، فاقتحموا ماء النهر مغطسين أجسامهم فيه، معترفين بخطاياهم، طالبين التوبة

من خالقهم. وكان كل شخص قد أحضر ملاية، كبيرة من القماش، ليلف بها جسده، ثم يغطس فى ماء النهر ، وبعد ذلك يحتفظ بالملاية لتكون كفنا له عند وفاته، وكان صليب كبير من الخشب مغروزا فى وسط النهر ، يشير إلى البقعة التى وقف فيها السيد المسيح عليه السلام، حين تقبل عماده من يوحنا المعمدان" (جقمان، ٢٠٠٠، ص٤٣).

ولم يسهم اليهود بدور فاعل فى تاريخ الحركة السياحية فى فلسطين، كما يطيب لبعض المؤرخين والجغرافيين اليهود والأجانب أن يدعوا، بل لعبوا دورا بارزا فى إثارة أجواء القلاقل والفتن فى بعض الأحيان، والتشويش على الحجاج المسلمين والمسيحيين القادمين إلى الأرض المقدسة.

السياحة فى العصور القديمة:

فلسطين بلد ذو تقاليد سياحية مغرقة فى القدم، ويمكن القول إن السياحة ولدت فيها؛ لأن أقدم شكل للسياحة فى التاريخ (الحج)، بدأ هناك، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن فلسطين مهوى أفئدة مؤمنى العالم، من أتباع الديانات السماوية الثلاث: الإسلام والمسيحية واليهودية، وهى فوق ذلك مهد الحضارة البشرية ذاتها. فقد استوطن الإنسان فى فلسطين منذ مائة ألف سنة، متجولا، يعيش على الجمع والالتقاط، ويسكن الكهوف والمغاور، بعد اعتدال مناخها على أثر الانحسار الجليدى، وعودته إلى خطوط العرض الحالية. ومع الزمن أخذ فى الاستقرار، فى مواقع محددة، فبدأ بزراعة النباتات البرية، وترويض الحيوانات وتدجينها، وصنع الآلات والأدوات المختلفة الحجرية، لتساعده على الزراعة والحصاد والطحن، حتى وصل إلى مرحلة الاقتصاد الإنتاجى القائم على الزراعة والرعى، بعد أن كان مستهلكا فى مرحلة الجمع والالتقاط (انظر شكل رقم ١).

شكل رقم (١)

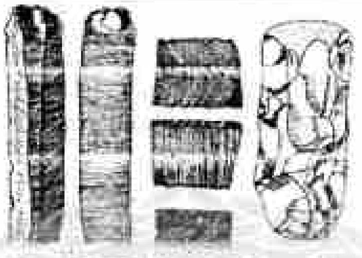

أدوات صوانية تمثل الصناعة الكنعانية تعود للعصر البرونزي القديم

وبدأت مسيرة الحضارة في فلسطين، حيث الحضارة، وحيث عمرت القرى، وأنشئت المدن، ومنها مدينة أريحا التي تعد أولى مدن العالم، والتي تنتمي إلى العصر النيوليثي Neolitic، الراجع إلى الألف الثامنة قبل الميلاد، أو كما أوضحت بعض الدراسات، أنها تعود إلى حوالي سنة ٦٨٠٠ق.م. (المبيض، ١٩٨٩، ص٩).

١ ـ السياحة والسفر إلى فلسطين لدى الشعوب القديمة:

يمكن القول إن السياحة والسفر إلى فلسطين عرفت منذ أقدم العصور، فقد عرفت أسفار الاستجمام لدى الشعوب القديمة؛ مثل الفينيقيين والمصريين القدماء، كما نشط التجار في زمن الدولة الفينيقية في السواحل الشرقية للبحر المتوسط. وقد عرف عن التجار النشاط، وكانوا يرحلون إلى مختلف الاتجاهات برا وبحرا، يتاجرون في المنتجات التي كان يعرفها العالم آنذاك.

ومع إطلالة القرن العشرين قبل الميلاد، كانت التجارة بين الشعبين العربي والكنعاني في فلسطين والمصري قد وصلت أوجها، مخترقة الطرق البرية والبحرية، فصدروا لمصر الأقمشة المصنوعة ذات الألوان الأرجوانية المطرزة، والزيتون وزيته، والعسل، والعنب، والخمور، والزفت، في حين استوردوا من مصر الكتان والفراء وغير ذلك، وغمرت أسواق المدن الكنعانية

فى فلسطين من غزة وعسقلان جنوبا حتى أقصى المدن الشمالية (حسن، بدون تاريخ، ص١٦٩-٢٦٦). وهكذا صنع الشعبان أول طريق تجارى فى العالم، يمتد من شرق الدلتا فى اتجاه شمال سيناء بالقرب من ساحل البحر، حتى يصل إلى مدينة غزة مواصلا رحلته شمالا مع السهل الساحلى الفلسطينى، ومنها إلى سوريا، حتى العراق (طريق حورس، فطريق البحر)، ليتفرع منها طرق عدة، فيما بعد، تتواءم مع حجم التجارة الأخذة فى الازدياد بالكم والكيف.

وهكذا نجد أن تلك الفترة شهدت قيام تبادلات واتصالات بين المصريين القدماء والكنعانيين، سواء عن طريق الكهنة المصريين ومندوبى الفراعنة، أو عن طريق سفر كبار التجار، بمنتجات مصر إلى فلسطين. وبالرغم من أن السفر لغرض التجارة يتنافى مع تعريف السياحة الحديثة؛ فإنه من الصعوبة تصور الانتقال من بلد إلى آخر فى هذا الزمن البعيد، مع بداية الحضارات، لمجرد الترفيه والمشاهدة (الأفندى، ١٩٨٣، ص٤٢).

شكل رقم (٢)

أختام عثر عليها فى مواقع متعددة بفلسطين
تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد توضح تأثيرات حضارة ما بين النهرين

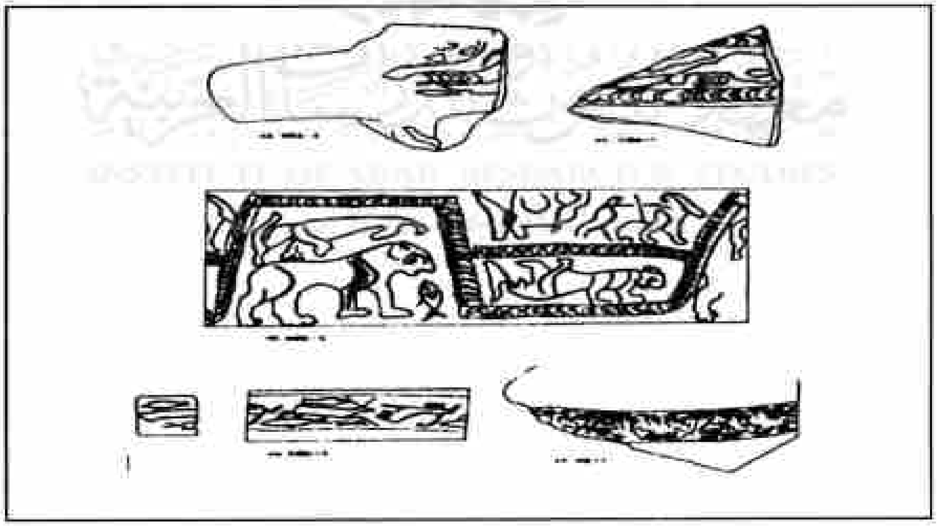

مصدر: الموسوعة الفلسطينية - الدراسات الخاصة (القسم الثانى) - الدراسات التاريخية (المجلد الثانى).

ويمكن القول إن السياحة كانت واضحة فى تنقل سكان فلسطين من مكان إلى آخر، وخروجهم إلى العالم الخارجى، شجعهم على ذلك موقع فلسطين المتوسط بالنسبة إلى الحضارات المجاورة.

وقد شهدت الفترة العربية الكنعانية الفينيقية فى فلسطين، انفتاحا على الحضارات الأخرى؛ إذ استطاعوا أن يسهموا فى تحضر إخوتهم العرب القاطنين فوق الجبال الوسطى والصحارى الجنوبية فى فلسطين، من خلال تقديم العون والخبرة الفنية المعمارية وبناء السفن لهم عند أيلة (أم المرشرش) على البحر الأحمر، أيام ملكهم حيرام ٩٦٩-٩٣٦ق.م (المبيض، ١٩٨٩، ص١٦).

ولا شك فى أن كل ذلك أعطى للعرب الكنعانيين من سكان فلسطين الفرصة لمشاهدة حضارات المناطق المجاورة، وهذا يعد أحد أهداف السياحة فى عصرنا الحالى (انظر شكل رقم ٢، وشكل رقم ٣).

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES
عضو اتحاد الجامعات العربية

شكل رقم (٣)

مراكز العمران فى فلسطين الجنوبية فى عهد الكنعانيين

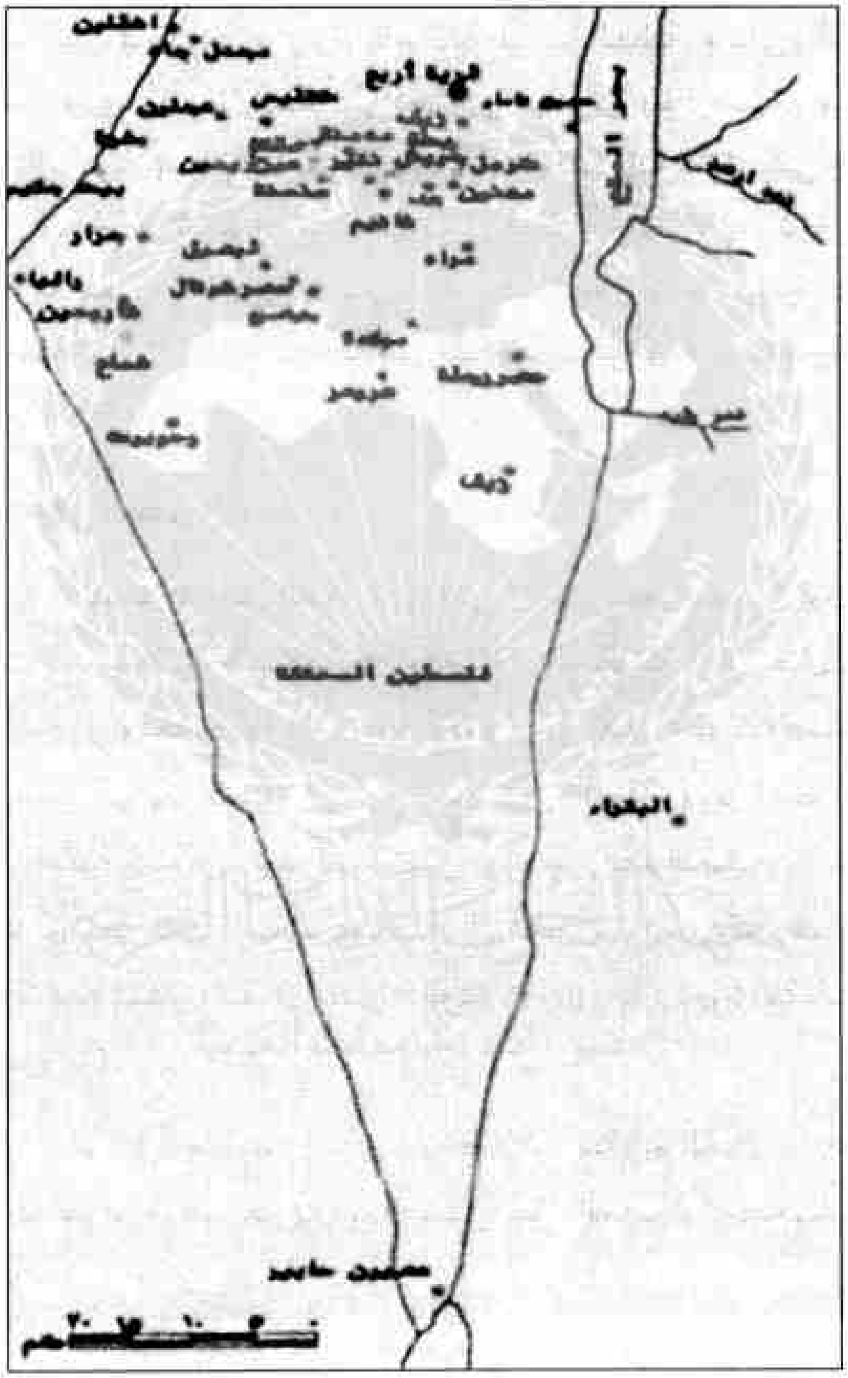

٢- السياحة فى عصر الإغريق:

كانت فلسطين هدفا لزيارة الإغريق لمشاهدة آثارها وعجائبها، خاصة من الرحالة الذين يمكن عدهم روادا للسياحة الثقافية الحالية، وعلى رأسهم العالم هيرودوت الذى وصف الأراضى الواقعة بين أنيسوس (خان يونس)، وبحرية سربونس (البردويل)، بأنها شديدة الجفاف. وحينما قال إنه كانت تأتى إلى مصر أوان فخارية مملوءة بالنبيذ من بلاد اليونان وفينيقيا، وكان كل رئيس مقاطعة يرسل جميع الجرار الفخارية إلى منف حيث تفرغ، ثم يغلونها بالماء، ويصدرونها إلى الأقاليم الجافة فى البلاد السورية (المبيض، ١٩٧٨، ص١٢٧).

٣- السياحة فى العصر الرومانى:

يشير عدد كبير من المؤرخين إلى أن الرومان هم من أول شعوب الحضارات القديمة التى اهتمت بشغل أوقات الفراغ بالسفر والترحال من أجل المتعة والسرور وقضاء أوقات طيبة. ويعزى ازدهار الحركة السياحية فى العهد الرومانى إلى نمو الطبقة الوسطى، مع توافر العملة، وكثرة الطرق البرية والممرات المائية الممتازة، وتوافر الأمان، وتحسن فهم اللغات، والتوسع فى الألعاب الرياضية التى نسخت عما بدأه اليونانيون، والتى يقوم بها الأسرى والعبيد. وكانت تسمى بالقتال حتى الموت Fight to death (مقابلة وديب، ٢٠٠٠، ص٢٢).

ففى عام ١٢٩ ميلادية (الذى أصبح بداية للتقويم الغزى أو الهدريانى نسبة إلى الحاكم الرومانى هدريان)، أقيم فى غزة ألعاب أوليمبية ومهرجانات رياضية لألعاب القوى والملاكمة والمصارعة، قام بعرض الأسرى خلالها لتمزق الحيوانات أجسادهم إربا إربا (المبيض، ١٩٨٧، ص١٣٥).

ولما كان هدريان كارها للديانة اليهودية والمسيحية الوليدة، فقد اهتم ببناء الهياكل والمعابد الوثنية، ونشر في فلسطين مراكز خاصة لهذه العبادات، وجعل مدينة غزة مدينة العبادات الوثنية هي وميناءها أنثيدون، كما بنى معبد "سفيس جوبيتر" على قمة جبل جرزيم في نابلس (الصاحب، ٢٠٠٠، ص٨٥)، كما أقام في بيت لحم في مغارة المهد تمثالا لأدونيس، وغرس حولها غابة سماها غابة تموز Tammuz، وأقام كذلك معابد للأصنام فوق مكان كنيسة القيامة في القدس (جقمان، ٢٠٠٠، ص٢٥).

وكان هدف هذا الحاكم الروماني القضاء على العقيدة المسيحية الوليدة التي بدأت تنتشر في فلسطين، والتي أصبحت معترفا بها، عندما أعلن الملك قسطنطين حرية العبادة لرعاياه في إمبراطوريته، ومنها العقيدة المسيحية. وفي سنة ٣٢٦ أرسل قسطنطين والدته هيلانة لبناء كنائس فخمة في الأماكن المقدسة في فلسطين، وكان من هذه الكنائس كنيسة المهد التي بنيت فوق مغارة الميلاد في بيت لحم، وجاء لزيارة الأماكن المقدسة مختلف طبقات الناس من ملوك وأمراء وفرسان وتجار وأناس عاديين. وقد كتب كثير منهم مذكرات عما شاهدوه، وكانت كلها تدور حول وصف قرية بيت لحم الصغيرة، القابعة فوق جبل عال وكنيستها. وذكر بعض الرحالة كيف أنهم وجدوا مدينة بيت لحم مهدمة تقريبا، وقد هلك سكانها، وآخرون ذكروا كيف أعيد تعميرها، ورجوع من تبقى من سكانها، كما أعيد إعمارها مع المزارع المحيطة (جقمان، ٢٠٠٠، ص٣٥). ولعل هذا النوع من السياحة هو من أنماط السياحة الحديثة، أو ما يعرف الآن بالسياحة الدينية.

وانتشر في مدينة غزة، في عهد هدريان، تجارة الرقيق. وفي سنة ١٣٤م، أصبح فيها أسواق لهم. ولا شك في أن هذه الحركة التجارية المزدهرة تتيح للتاجر المتنقل الاطلاع على التقدم الواضح الذي طرأ على مدينة غزة التي تألقت في عهد هذا الحاكم، وامتد الأمر إلى مجال المواصلات، حتى أصبحت

شبكة المواصلات الرومانية بعد هدريان فى فلسطين تامة، وأخذت شكلها النهائي الذى يربط سواحلها بداخلها حتى دمشق (انظر شكل رقم ٤)، (المبيض، ١٩٨٧، ص١٣٧).

شكل رقم (٤)

المصدر: الموسوعة الفلسطينية - الدراسات الخاصة (القسم الثانى) - الدراسات التاريخية (المجلد الثانى).

ويلاحظ أنه فى العهد الرومانى، تميزت فلسطين ببناء عدد كبير من الأقنية والترع، أو على الأقل إصلاح ما تداعى منها، وتوزيع المياه فى مجارى الأنهار السفلى على الأراضى المجاورة لريها؛ مثل منطقة بحيرة طبرية وصفورية فى الجليل، وأريحا، وقيصرية، وجازر (أبو شوشة)، وبيت المقدس.

وعادت العناية بالصناعات، بسبب الحاجة التى تطلبها وجود الجنود الرومان، ولأن الأسواق الخارجية عادت تطلبها. فنشطت صناعة الأقمشة فى قيصرية ونابس ودورا، وظل زيت الزيتون والخمور والثمار المجففة من الأشياء المرغوب فيها مما تنتجه فلسطين (الموسوعة الفلسطينية، ١٩٩٠، ص١٩٥).

ولا شك فى أن هذه المراحل المزدهرة فى تاريخ فلسطين، فى ظل الحكم الرومانى، كان لها انعكاسات مباشرة على حركة السفر والترحال، من فلسطين وإليها، فقد تواصلت فى هذا العصر زيارات الرحالة إلى فلسطين، ومنهم استرابو الذى يعد من الرحالة الممتازين الذين زاروا فى رحلاتهم كثيرا من البلدان المأهولة، ومنها فلسطين.

واهتم استرابو بالملامح الجغرافية، وأعجب إعجابا كبيرة بالبحر الميت، فقضى وقتا طويلا إلى جواره، ولاحظ كثافته، وأنه يمنع المرء من أن يغطس، ويبقى إلى حدود الخصر، وقد لاحظ الينابيع الساخنة (سرحان، ١٩٨٨، ص٩١).

وكان أيضا من هؤلاء السياح والزوار سنوحى الذى ورد الحديث عن زيارته إلى فلسطين فى أوراق البردى المصرية. وقدم سنوحى وصفا كاملا عن أوضاع البلاد آنذاك، فوصفها بأنها البلاد التى تفيض لبنا وعسلا (سرحان، ١٩٨٨، ص٩٠).

طريق رحلة السيد المسيح من فلسطين إلى مصر:

الطرق التاريخية لها جاذبية سياحية كبيرة، فخلال عبورها ينتقل السائح إلى الجو التاريخى القديم، خاصة إذا كانت هناك عناية بالطرق، وما تضمه من علامات مميزة توضحه، وتظهر طابعه (الأفندى، ١٩٨٣، ص٩٠).

وتتجلى أهمية تلك الفترة بكل ما لها من انعكاسات على السياحة الحديثة، فى خط سير رحلة السيد المسيح (عليه السلام) مع والدته مريم العذراء ويوسف

التجار؛ إذ بدأ الركب من بيت لحم قاصدا مصر، ومروا فى طريق محاذ لشاطئ البحر المتوسط، حتى وصلوا إلى الخليل على مسافة ٣٩كم من بيت لحم، ثم تابعوا السير مرورا ببئر السبع، حتى عبرت القافلة وادى العريش فى جمهورية مصر العربية (الأفندى، ١٩٨٣، ص٩١).

ولا شك فى أن هذه الرحلة كان لها أبعد الأثر فى اتجاهات الحركة السياحية، ليس إلى فلسطين فحسب، بل إلى المنطقة كلها، خاصة فى جمهورية مصر العربية، فى العصور التى تلت هذه الرحلة.

فقد انتشرت فى فلسطين فى القرون الأولى بعد الميلاد الأديرة والصوامع والكنائس التى بلغ عددها من القدس حتى مدينة الكرك الأردنية ٣٦٥ كنيسة على عدد أيام السنة (جقمان، ١٩٩٤، ص١٢٩).

شكل رقم (٥)

المصدر: الموسوعة الفلسطينية - الدراسات الخاصة (القسم الثانى) - الدراسات التاريخية (المجلد الثانى).

وشهدت فلسطين قدوم كثير من النساك فى القرنين الرابع والخامس، خاصة من منطقة آسيا الصغرى من أمثال جيروم، والقديس أفتيميوس والقديس سابا والقديس ثيودوسيوس (صاحب دير ابن عبيد)، والقديس خاريتون. وكان أول دير بنى فى فلسطين الدير الذى بناه القديس إيلاريون Elarion قرب غزة فى سنة ٣٢٩م، وفى المدة نفسها كان القديس خاريتون يبنى ديرا له فى ممر ضيق جنوب شرق مدينة القدس، ثم بعد ذلك بوقت قصير أقام أديرة للنساك فى أماكن متعزلة فى جنوبى بيت لحم (جقمان، ١٩٩٤، ص١٣٠)، ولا شك فى أن ذلك كله يندرج فى إطار ما يسمى حديثا بالسياحة الدينية (انظر شكل رقم ٥، وشكل رقم ٦).

شكل رقم (٦)

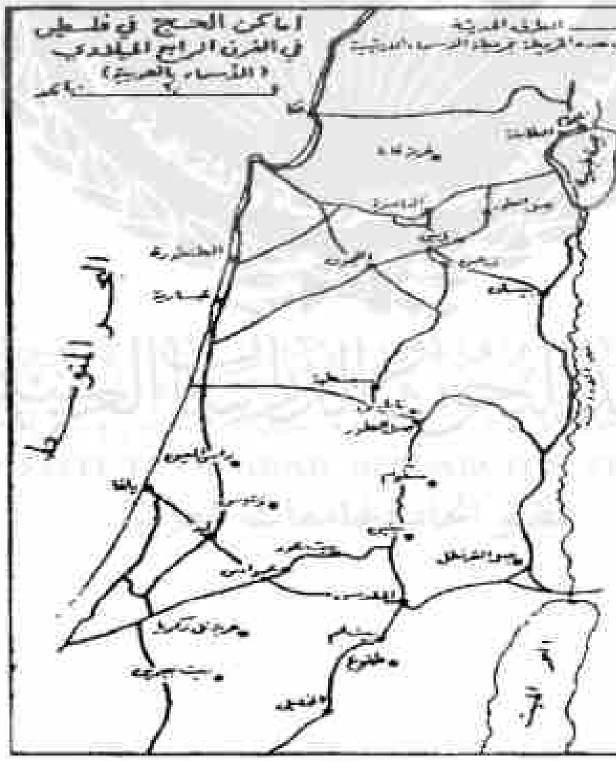

المصدر: الموسوعة الفلسطينية - الدراسات الخاصة (القسم الثانى) - الدراسات التاريخية (المجلد الثانى)

السياحة إلى فلسطين فى العصور الوسطى:

فى العصور الوسطى كان السفر محدودا؛ ويعود ذلك إلى عدم الاستقرار السياسى، وتقلص دور التجارة والقصور فى وسائل النقل ومحدودية وقت الفراغ. وكان السفر يمثل نوعا من المخاطرة والمشقة، وإن كان مصطلح Travel يعود فى نشأته إلى العصور الوسطى (عبد الحكيم والديب، ١٩٩٥، ص٢٦).

أ- السياحة الدينية إلى فلسطين:

بالرغم من كل هذه الصعوبات؛ فإن الكنائس المسيحية كانت تشجع السفر إلى الأديرة المنتشرة لأجل نشر الدين المسيحى، وكان الرهبان يشجعون الناس على التوجه إلى الحج، ففى القرن الرابع عشر أصبح الحج ظاهرة، وانتشرت شبكة من النزل الخيرية لتخدم كل الطبقات الاجتماعية، وكان المسيحيون فى طريقهم إلى القدس يقومون بجولات اجتماعية واستجمام، برغم دافعهم الدينى للسفر.

وتوالت زيارات الزائرين والحجاج والمستشرقين، من مختلف الأصقاع الذين كانوا يفدون لزيارة الأرض المقدسة. ويكفى أن ندلل على ازدهار ظاهرة الحج إلى القدس بأن نقرأ فى المصادر الأوربية المعاصرة، "أنه أصبح ظاهرة جماعية يخرج فيها آلاف المسيحيين من غرب أوربا".

ونشير فى هذا الصدد إلى ما ذكره رودلف جلابر Rudolph Glaber، وهو أحد الرحالة الأوربيين الذين زاروا القدس فى العقد السابع من القرن الحادى عشر، حين قال: "إن جموعا لا تحصى كانت تأتى من جميع أنحاء الدنيا إلى القدس، من قبل لم يكن من الممكن أن يصدق أحد أن هذا المكان سيجذب هذا التجمع المدهش من الناس" (النقر، ١٩٩٩، ص١٥).

وفى القرن الخامس عشر سجلت رحلة جماعية نظمت فى فينيسيا إلى

الأرض المقدسة، أول شكل من أشكال "التسويق السياحى"؛ إذ شملت الرحلة النقل والطعام والمبيت وركوب الحمير والرشوة الضرورية للمرور، وكانت مؤسسات الطعام السريع منتشرة على طول الطرق إلى الحج، وبائعو الخبز والفواكه والسمك واللحم والكعك موجودين على جوانب تلك الطرق.

ب- السياحة فى فترة الحروب الصليبية:

تأثرت السياحة إلى فلسطين فى فترة الحروب الصليبية بالأحداث التى شهدتها الأراضى المقدسة، خاصة بعد سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين سنة ١٠٩٦م، وما رافق ذلك من أعمال عنف ضد المسلمين، كما تشهد على ذلك وثيقة Gesa Francorum التى اشترك صاحبها فى هذه الحملة (عاشور، ١٩٦١، ص٤٦٠).

وذكر غاى لوسترونتج (عالم الآثار الفرنسى) الذى نزل القدس فى أواخر القرن التاسع عشر، أن الصليبيين غيروا معالم المسجد الأقصى كثيرا، فاتخذوا جانبا منه كنيسة، والجانب الآخر مسكنا لفرسان الهيكل، وأضافوا إليه من الناحية الغربية بناء، جعلوه مستودعا لذخائرهم (جقمان، ١٩٩٩، ص٢٦٥).

ولم تنقض سنوات طويلة على الصليبيين فى الشرق حتى تغلبت المصالح التجارية على الغرض الصليبى، فأصبح لا هم للحجاج الذين يفدون تباعا من غرب أوربا إلى الأراضى المقدسة سوى مباشرة النشاط التجارى، والعودة إلى بلادهم محملين بالثروة والمتاجر (عاشور، ١٩٦١، ص٤٦٣).

وعلى الرغم من تعدد الحملات الصليبية؛ فإن جموع الحجاج والصليبيين قد استمرت فى طريقها إلى الأراضى المقدسة، غير أنها كانت تتذبذب بين الكثرة والقلة، تبعا للأوضاع السائدة، خاصة أوضاع الإمارات الصليبية فى الشرق، حتى عقد صلح الرملة بين صلاح الدين الأيوبى وريتشارد (سنة

١١٩٢م)، وفيه تم الاتفاق على أن يقتسم الصليبيون والمسلمون اللد والرملة، وأن تهدم عسقلان لتكون منطقة حرام بين الطرفين، على أن يحتفظ الصليبيون بساحل الشام بين صور ويافا، في حين يظل باقي فلسطين ومعه بيت المقدس في أيدى المسلمين الذين تعهدوا بالسماح للمسيحيين بالحج والزيارة (عاشور، ١٩٦١، ص٤٦٧).

وفى فترة الحروب الصليبية، وفى عهد صلاح الدين ومن تلاه من أمراء المماليك، تم الاهتمام بإحياء المواسم الشعبية، بهدف حشد قوى بشرية هائلة تكون جاهزة فى فترات موسم الحج المسيحى إلى فلسطين، وتتوافر قوى محاربة ترافق قوات السلطان التى تتخوف من احتكاكات فى أثناء مواسم الحج. وبما أن الزيارة فى الموسم تأخذ طابع الزيارة الجماعية لأعداد كبيرة من الشعب؛ فإنها تعد صورة من صور السياحة الداخلية التى تتكرر كل سنة، وتتحول إلى تقليد شعبى دائم.

ومن أهم هذه المواسم، موسم النبى موسى فى أريحا الذى ينظر إليه بعض الباحثين على أنه احتفال جماهيرى، ورحلة سياحية، بحثا عن المتعة، ولممارسة شتى صنوف الترفيه؛ مثل الإقامة فى البر والخلاء والمشاركة فى الرقص وعروض الترفيه، وقد بلغ عدد الذين كانوا يشاركون فى موسم النبى موسى فى أريحا حوالى خمسة عشر ألف فلسطينى، كانوا يرتادون موسم النبى فى الربيع، على مدى ثمانية أيام.

وكانت الخانات ذات أهمية خاصة بوصفها مؤسسة عمرانية واقتصادية، فقد كان النشاط الاقتصادى والتجارى يجرى ويتمركز فى منشآت خاصة، تبنى خاصة للقيام بوظائف التجارة والخزن، وإجراء عمليات البيع والشراء وصك العقود التجارية، وتداول المال وكذلك الاستقبال، وإيواء المسافرين والرحالة، وقوافل التجارة والحج، بعضها يبنى داخل المدن، وبعضها الآخر فى أطراف مراكز العمران أو على طرق المواصلات بين المقاطعات والممالك القديمة.

ويطلق على هذه المنشآت تسميات مختلفة؛ منها الخان Khan، والقيسارية Kisariya، والفندق Funduq، والوكالة Wakala، وهي منشآت ذات هيئة معمارية خاصة بها، لكنها تقوم بوظائف متشابهة، وبدرجات متفاوتة (محمود، ١٩٩٩، ص١٨٠).

فالخانات كانت تقوم بدور الفندق إلى جانب المهام والأنشطة الأخرى، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة؛ مثل خان الأقباط، وخان باب الخليل، وخان باب الزيت، وخان الظهر، وخان الأمير، وخان الفحم، وخان الشعراء، وغيرها من الخانات. لقد توقف الرحالة والمسافرون إلى الشرق والأراضي المقدسة عند الخانات العزيزة عليهم، لما توفره من الراحة والأمن.

إن أهمية فلسطين الحضارية والدينية، وقدسية أماكنها، جعلتها مراكز حضارية وعمرانية مأهولة بالسكان، يؤمها الحجاج والسياح القادمون من بلدان العالمين: الإسلامي والمسيحي؛ وهو الأمر الذي أسهم في نشأة أسواقها وتطورها وتنوع خيراتها.

وكان للأديرة - ومازال - دور مماثل للخانات؛ إذ عدت مقار إقامة وبيوتا للضيافة لاستقبال الحجاج والزائرين إلى الأرض المقدسة، وتقوم هذه الأماكن بتأمين المأكل وتوفير الهدوء لهؤلاء الحجاج.

كما أسهمت الزوايا والتكايا في توفير المبيت للزوار المسلمين، وكانت منتشرة بصورة كبيرة في مناطق مختلفة من الضفة الغربية، وتعد وسيلة من وسائل الإقامة، ولا تتقاضى هذه الأماكن أي نقود مقابل استقبالها للزوار والسائحين، ومن أهم هذه المزارات زاوية المئذنة الحمراء، والزاوية الأفغانية في القدس، والدرويشية في نابلس، وتكية سيدنا الخليل في الخليل (حماد، ٢٠٠٨، ص١٢).

ج- الحركة السياحية منذ نهاية حرب القرم:

تطورت الحركة السياحية منذ نهاية حرب القرم، وهى حروب بين الدولة العثمانية وروسيا القيصرية، فكانت الاتحادات الطائفية التى أسست فى عدد من البلدان الأوربية، تنظم أفواجا للحجاج تتمتع بالرعاية الروحية، من مرسيليا منذ عام ١٣٥٣م (صلاح الدين، ١٩٩٦، ص٣٧-٣٨).

وقد شهدت تلك الفترة ترميم كثير من الكنائس؛ مثل كنيسة المهد التى رممت عدة مرات على أيدى الآباء الفرنسيسيين الذين لم تقتصر عنايتهم بالأماكن المقدسة فحسب، بل تعدتها إلى العناية بالزوار الذين كانوا يؤمون البلاد خاصة بيت لحم، فقد دافعوا عنهم وتوسطوا لدى السلاطين، وحصلوا منهم على فرمانات عدة يأمرون فيها أرباب الحكم فى فلسطين أن يرفعوا عن الزوار المظالم والمغارم. ولأجل راحة الزوار فى بيت لحم بنى الآباء الفرنسيسيون دار ضيافة قرب ديرهم، عرفت باسم "كازانوفا" (أى البيت الجديد)، لينزل فيها الزوار على الرحب والسعة، وهكذا يرجع كل زائر إلى بلاده بعد أن يكون قد أتم زيارته، وأشبع نفسه من التعبد، مشيعا باللطف والرعاية والعناية (جقمان، ٢٠٠٠، ص١٥٩).

السياحة إلى فلسطين فى العصر الحديث:

حركة السياحة إلى فلسطين من ١٨٥٠ إلى ١٩٥٠:

بدأت المؤسسات السياحية من عام ١٨٥٠م تهتم بأولئك المسافرين الذين لا يرغبون فى السفر وحدهم إلى فلسطين.

وكان معظم السياح تقريبا ينزلون فى الأديرة، أو فى الأنزال (الهوسبسات) التى كانت ترعاها المؤسسات الدينية، وذلك ما توفره بعض الأرقام عن أعداد السياح الذين زاروا الأرض المقدسة. ففى حين زارها سنة ١٨٤٥م حوالى ٥ آلاف سائح، ارتفع العدد عام ١٨٥٨ إلى ٩,٨٥٤ سائحا فى

شهر شباط من السنة نفسها، وفي آذار من السنة نفسها وصل العدد إلى ١٣,٤٧٥ سائحا، وسجل الفرنسيسكان في السنوات من ١٨٥٠-١٨٥٩ حوالى ٥٥,٧٦٣ سائحا، وبلغ مجموع ليالي المبيت ٢٢٩,٣٤٦ ليلة. ويلاحظ أن الأغلبية العظمى من هؤلاء السياح كانت من المسيحيين الأوربيين الشرقيين، ومن مسيحيي الشرق، وأكبر فصائلهم كانت من السياح الروس (صلاح الدين، ١٩٩٦، ص٢٨).

شكل رقم (٧)

وكان يزور فلسطين سنويا حتى بداية القرن الحالي، ما معدله ٢٠,٠٠٠ سائح أجنبي، إضافة إلى آلاف الزوار العرب الذين كانوا يتوافدون على فلسطين، ولا سيما في رمضان، وبعد عيد الأضحى، وفي أعياد الميلاد من كل عام، وكان عدد السياح الوافدين إلى فلسطين يتزايد سنويا، حتى وصل عدد السياح من غير العرب إلى قرابة ٣٠,٠٠٠ شخص في السنة، قبل قيام الكيان الصهيوني على أرض فلسطين. على أن هذه الأعداد كانت تتغير طبقا للعوامل السياسية والأمنية في البلاد (الموسوعة الفلسطينية، ١٩٩٦، ص٦٠٢).

شكل رقم (٨)

المصدر: الموسوعة الفلسطينية - الدراسات الخاصة (القسم الثاني) - الدراسات التاريخية (المجلد الثاني).

وكانت مدينة يافا بوصفها ميناء فلسطين، وأهم مكان للتجارة الخارجية يفد السياح إليها، ولذلك بدئ بتحسين ميناء يافا، خاصة مع النمو السريع في شحن البضائع وتفريغها في الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر، وأيضا نمو حركة سفر الأشخاص التي قدرت في بداية الستينيات حوالي ٨٠ ألف مسافر، فكان لابد من بناء منشآت الميناء باستمرار، وقامت السلطات بتحسينات في المرفأ، ولكنها لم تكن كافية (صلاح الدين، ١٩٩٦، ص٢٨-٢٩).

وعلى العموم، فإن تطور الموانئ المنتشرة على الساحل الفلسطيني، وارتباطها بخطوط بحرية تتصل بموانئ أوربا (المتوسطية والأطلسية) وموانئ أمريكا وجنوب شرق آسيا، شجع قدوم السياح إلى فلسطين، إضافة إلى ارتباط فلسطين بالخط الحديدي الحجازي (سابقا) عن طريق حيفا - العفولة - درعا، ووجود شبكة من الخطوط الحديدية داخل فلسطين تصل إلى معظم الأماكن السياحية فيها، وارتباط المدن الفلسطينية بطرق برية جيدة، تمتد إلى الدول المجاورة. كل ذلك أسهم في تطوير السياحة في فلسطين، منذ نهاية القرن التاسع عشر (الموسوعة الفلسطينية، ١٩٩٦، ص٦٠٢).

شكل رقم (٩)

وقد أقيمت في المدن الفلسطينية الكبرى، قبل نهاية القرن، مجموعة كبيرة من الفنادق الجيدة، لاستقبال السياح، وكانت تابعة إما لشركات أجنبية، وإما لشركات محلية، وإما لشركات مشتركة. ففي مدينة القدس - مثلا - كانت الفنادق منتشرة انتشارا واسعا، لم تعرفه مدن المشـــرق الأخرى في ذلك الوقت، ومن أهمها: Grand New Hotel، Lioyd Hotel، Hotel Metropol،

Hotel Jerusalem، وكان معظم هذه الفنادق فى شارع يافا، واشتهر أيضا فندق الأردن فى أريحا (حماد وحماد، ٢٠٠٨، ص١٤).

وأسهمت الكنائس والإرساليات الأجنبية، ولا سيما المسيحية، والأهالى فى توفير الغرف لمبيت السياح، وقام بعض السكان أيضا بتوفير الدواب لنقلهم إلى المناطق الوعرة التى لا تصل إليها العربات أو السيارات، وإعداد القوارب، لتمكينهم من القيام برحلات بحرية قصيرة، ولا سيما على سواحل البحر المتوسط، وفى بحيرة طبرية والبحر الميت (الموسوعة الفلسطينية، ١٩٩٦، ص٦٠٢).

يشار إلى أن الإرساليات التبشيرية التى بدأت تصل إلى فلسطين، خاصة من أوربا، لبناء المدارس للأولاد والبنات، وبناء المستشفيات والأديرة فى القدس والناصرة وبيت لحم وغيرها (جقمان، ٢٠٠٠، ص٣٥)، أسهمت فى تطور البلاد، وتطور معيشة الأهالى فى هذه المدن، على وجه التحديد، وتنوير أفكارهم، ورقى الحياة الاجتماعية لهم؛ وهو مما كان له أبلغ الأثر فى النشاط السياحى فى البلاد، وتمخض عنه تشكيل كثير من فرق الكشافة التى تشترك فى الاحتفالات الدينية والوطنية، خاصة تلك التى تشهد إقبال كثير من السياح. فمنذ سنة ١٩٣٢م أسست الجمعية الأنطونية الخيرية البيتلحمية فرقة كشافة المهد التى كانت تشارك فى استقبال غبطة البطريرك فى عيد الميلاد (جقمان، ٢٠٠٠، ص٦٠).

ويلاحظ أن كثيرا من المدن الفلسطينية، فى خلال هذه الفترة، سجلت كثيرا من الإنجازات العمرانية؛ مثل تشييد حديقة المنشية فى لواء نابلس، وتعمير الجوامع والسبل والمؤسسات الخيرية التى لم تقتصر على مركز اللواء، بل امتدت إلى القرى والمناطق المجاورة، كما حدث فى سبسطية وبيت أمرين وجنين، كما تحققت إنجازات متعددة فى لواء القدس؛ إذ أصابت التعمير فى

المدينة، والعمل على إرساء قواعد المساواة بين الطوائف فى البلاد (صبرى، ١٩٨٢، ص١٩).

وقامت بعض الدول الأجنبية ببناء بعض المبانى الفخمة فى البلاد؛ مثل بناء دار "أوغستا فكتوريا" التى أجمع معظم المؤرخين على أن بناء بهذا الحجم إنما يعكس اهتمام ألمانيا بالقدس، علما بأن قرار إقامة هذا المبنى اتخذ عند زيارة الإمبراطور الألمانى للقدس فى خريف سنة ١٨٩٨م؛ إذ استغرق بناؤه ثلاث سنوات؛ بسبب ضخامته، وجرى تدشينه فى التاسع من ابريل سنة ١٩١٠ (جقمان، ٢٠٠٠، ص٣٥٢).

ولا شك فى أن لذلك كله تأثيرا إيجابيا فى حركة السياحة الخارجية، وكذلك الداخلية التى لم يجر حصرها انذاك، غير أنها كانت نشطة جدا، ولاسيما فى الخليل وبيت لحم، واقتصرت الإقامة فى المصايف والمشاتى الفلسطينية على الطبقات الميسورة.

وقد تعرضت البلاد فى خلال الفترة التى سبقت الحرب العالمية الأولى لحالة من عدم الاستقرار؛ إذ كانت تنتشر من حين إلى آخر حوادث السلب والنهب والسرقة، كما وقعت حوادث أخرى على الطرق التى لم تقتصر على أبناء البلاد، بل شملت السياح كذلك (صبرى، ١٩٨٢، ص٤٥). ويمكن تفسير ذلك على ضوء الوضع العالمى غير المستقر آنذاك، الذى انعكس بصورة مباشرة على حركة السفر والسياحة فى العالم.

السياحة فى عهد الانتداب البريطانى لفلسطين:

ازدهرت حركة السياحة فى فلسطين مع بداية الانتداب البريطانى، بسبب الموقع الجغرافى لفلسطين الذى يربط آسيا بأفريقيا، ويربط بلاد المشرق العربى بمصر خاصة؛ إذ كانت مصر فى تلك الفترة تحت الاحتلال البريطانى، وفتحت فلسطين على العالم الأوربى، وأصبحت مزارا سياحيا للسياح الأوربيين خاصة الإنجليز؛ إذ كانت السياحة مقصورة على طبقة الأثرياء فى معظمها،

وأصبح الهدف منها الترفيه وقضاء الإجازات. وكانت تلك تعد بداية السياحة الحديثة إلى فلسطين.

ولعب النقل البحرى عبر ميناء يافا دورا مهما فى قيام الحركة السياحية، ووجود هذا الميناء ساعد على الاتصال البحرى مع العالم الخارجي؛ لأن البحر فى ذلك الوقت كان وسيلة النقل المهمة، بسبب ضعف حركة الطيران (صلاح الدين، ١٩٩٦، ص٣٠).

وعلى العموم كان البريطانيون يعدون فلسطين واحدة من أهم الركائز فى التكوين الجيوسياسى (الجغرافى السياسى) العسكرى فى الإمبراطورية البريطانية، وجزءا من سياسة الدفاع والاقتصاد الخاصة بها. فقد استثمرت فى تطور البنية التحتية للمواصلات والاتصالات للدولة (بما فيها المطارات والموانئ البحرية)، من أجل مصالحها الإدارية والعسكرية، ولخلق علاقات دولية جديدة (انظر شكل رقم ٨).

وفى خلال فترة الحكم البريطانى التى دامت ٣٠ عاما، تطورت البنية التحتية لفلسطين والخدمات العامة والتجارة وتصنيع البضائع بشكل ملحوظ. فقد كانت الأماكن التاريخية فى فلسطين تشهد تطورا ملحوظا، وجعل منها النمو الاقتصادى، ودخول الحداثة، محط أنظار السياح، ووضع البذور من أجل السياحة الحديثة. وفى الوقت نفسه، خضعت المواقع التاريخية فى فلسطين لتطورات كبيرة، فقد كان البريطانيون فى فترة الانتداب مهتمين بشكل كبير بالأماكن الفلسطينية المقدسة، وخطت البحوث والدراسات فى هذا المجال خطوات واسعة.

وقد لعبت أنشطة رابطة دراسة فلسطين وآثارها، إلى جانب الجهود البريطانية لحفظ الأماكن التاريخية (وإعادة إعمارها)، دورا كبيرا فى جذب السياح. كما أن ازدياد أعداد السياح للبلاد سرع فى تطور الأماكن التى

يزورونها؛ إذ أنشئ كثير من المعاهد والمؤسسات الثقافية؛ مثل متحف روك فيلر في القدس الذى أضاف إلى عوامل الجذب فى البلاد.

هذه العمليات تعكس التغيرات التى حدثت فى طريقة تقديم فلسطين فى الخارج، وتنوع عوامل الجذب فى الداخل. ويمكن القول إن فلسطين أصبحت مشهورة فى فترة الانتداب البريطانى، وذلك بسبب خصائصها العلاجية والمهدئة والمريحة، فقد كان بعض الناس يرى أنها تضاهى مستوى المنتجعات الأوربية. وأصبح كثير من المدن السياحية؛ مثل مدينة طبريا، محط اهتمام وجذب لأعداد كبيرة من السياح.

وفى خلال الحرب العالمية الثانية كان آلاف من جنود الحلفاء فى فلسطين يقضون الإجازات فى بيوت الضيافة؛ وهو مما أسهم بشكل كبير فى زيادة السياحة المحلية فى فلسطين. فقد كانت الأسعار الرمزية فى فلسطين سببا فى إنشاء أنواع مختلفة من أماكن الإقامة؛ مثل أماكن المعيشة للمتقاعدين التى كانت أصغر حجما وأكثر راحة من الفنادق، ففى المدن السياحية كان كثير من السكان المحليين يعتاشون من تأجير الغرف للسياح، فقد ازداد عدد أماكن المعيشة على النحو الذى أدى إلى استقطاب أعداد كبيرة من الناس والوسائل لتنظيم المشاريع فى البلد.

وقد كان بناء فندق الملك داود فى مدينة القدس عام ١٩٣١، حجر الأساس فى تطور صناعة الفنادق فى فلسطين، وهو أول فندق على المقاييس الدولية الذى كان جزءا من سلسلة فنادق فى مصر.

وقد شهد الانتداب البريطانى تسارع السباق اليهودى نحو فلسطين؛ إذ تمخضت السياحة بشكل جزئى عن الدعاية الصهيونية، فى ظل ازدهار الصهيونية، وبناء مستوطنات يهودية جديدة، إضافة إلى استغلال اليهود للسياحة، ولكثير من الأنشطة الرياضية والمعارض التجارية التى نشط

المهاجرون اليهود فى تنظيمها بالتنسيق مع الحركة الصهيونية للهجرة إلى فلسطين.

ومن أهم هذه الطرق التى اتخذها اليهود ستارا للهجرة إلى فلسطين (جبارة، بدون تاريخ، ص١٧٤-١٧٥):

١ - الهجرة عن طريق الرياضة والحفلات الرياضية؛ مثل: التجمعات المكابية للألعاب، وهو حدث رياضى جذب السياح والرياضيين اليهود والنساء من كل أنحاء العالم؛ إذ كان يحضر مع فريق اللاعبين آلاف من المتفرجين الذين يبقون فى فلسطين بعد انتهاء الحفلات الرياضية.

٢ - المعارض: وهى أن اليهود كانوا يقيمون معارض لعرض البضائع، ودخل كثير من المهاجرين تحت ستار المعارض؛ مثل معارض المزراح التجارية فى أوائل الثلاثينيات، التى أصبحت حدثا ثقافيا مهما، جذب مئات من السياح والزوار، خاصة من اليهود إلى فلسطين. وفى أوائل العشرينيات أعلن برعاية البنك الفلسطينى البريطانى عن تأسيس الوكالة الفلسطينية للسفر.

وبعد اغتصاب فلسطين عام ١٩٤٨، انخفض عدد الزائرين انخفاضا حادا بسبب قيام الحرب.

حركة السياحة إلى فلسطين فى النصف الثانى من القرن العشرين:

لجأت دولة الكيان الصهيونى إلى مختلف الإجراءات والوسائل، من أجل تطوير الحركة السياحية الإسرائيلية، وذلك لإدراك الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة أن السياحة تدر على إسرائيل دخلا كبيرا من العملات الأجنبية؛ وهو ما يدعم اقتصادها بشكل فعال، بعد أن أصبحت السياحة ثانى أكبر مورد للعملات الأجنبية فى إسرائيل.

وتشير الإحصاءات إلى أنه حتى عام ١٩٦٠ شكل اليهود من مختلف أنحاء العالم معظم السياح الزائرين إلى دولة الاحتلال الإسرائيلي، ففي عام ١٩٦٠ بلغ عدد السياح ١٠٠ ألف سائح، وتضاعف هذا العدد إلى ثلاثة أمثاله في السنوات الخمس اللاحقة، علما أن دافع هؤلاء السياح كان يختلف كل الاختلاف عن الدافع الذي يحرك السياح المعاصرين، فقد كانت هناك دوافع أكثر علمانية وراء الزيارة، فبعضهم يأتي لزيارة أسرهم وأصدقائهم الذين استوطنوا الأراضي الفلسطينية المغتصبة، وبعضهم الآخر يأتي نتيجة الدعاية المكثفة التي كانت تبثها سلطات الاحتلال الإسرائيلي حول أرض "السمن والعسل".

وفي المقابل، كان أحد نتائج قيام الدولة اليهودية على مساحة كبيرة من فلسطين التاريخية، توقف النمو الحضري في الأراضي التي لم تحتلها قوات الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٤٨، بعد النمو المدني الواسع الذي عرفته فلسطين في خلال فترة الانتداب البريطاني، وتحديدا في مدن حيفا ويافا والقدس (إمام، د.ت، ص٣٣٦).

حركة السياحة في الضفة الغربية وقطاع غزة تحت سيطرة الأردن ومصر:

تطورت حركة السياحة إلى فلسطين المحتلة بصورة تدريجية، ففي عام ١٩٥١ زار فلسطين المحتلة ٣٥,٨٩٥ سائحا، وفي عام ١٩٦٠ زار فلسطين المحتلة ١١٣,٩٥٦ سائحا، وارتفع عددهم في عام ١٩٦٦ إلى قرابة ٢٨٥,٠٠٠ سائح، وكان اليهود في خلال تلك السنوات يشكلون حوالى ٤٥٪ من مجموع السياح إلى فلسطين المحتلة (هلال، ١٩٩٥، ص١٤٥).

وفي المقابل، أصبح من الصعب حصر أعداد السياح القادمين إلى الضفة الغربية؛ لأن إحصاءات السياح في الضفة الغربية أدخلت في إحصاءات الأردن، بعد ضمها إلى إمارة الأردن في عام ١٩٤٩، وتشكيل المملكة الأردنية الهاشمية، ولذلك ارتفع عدد السياح القادمين إلى الأردن بصورة ملحوظة منذ

عام ١٩٥٠؛ إذ بلغ عدد السياح القادمين إلى الأردن في ذلك العام ٨,٦٤٧ سائحا، مقابل ٨٤,٨٩٢ سائحا في عام ١٩٥٥، و ١٣١,٦٩٩ سائحا في عام ١٩٦٠، وبلغ عددهم ٥٠١,٣٢٨ سائحا في عام ١٩٦٥، و ٦١٦,٨٣٠ سائحا في عام ١٩٦٦ (سعادة، ١٩٨٨، ص٧٥)، وقد بلغت نسبة السياح العرب في خلال تلك الفترة أكثر من ٥٠٪ من المجموع العام، باستثناء السنوات التي شهدت أحداثا سياسية، وقد قابل هذا الانخفاض في تلك السنوات ارتفاع في نسب السياح من الدول الأوربية والأمريكية (صادق، ١٩٧٨، ملحق رقم ١).

ويمكن تفسير هذه الزيادة المطردة للسياح العرب إلى الأردن بأن معظم هؤلاء السياح كانوا يدخلون الأردن وهم في طريقهم لأداء مناسك الحج في السعودية، وفي أثناء عودتهم منها، وزيارتهم للحرم القدسي الشريف، كذلك زيارة أعداد كبيرة من السياح العرب، خاصة المسيحيين منهم، كنيسة القيامة والأماكن المسيحية المقدسة الأخرى في القدس والضفة الغربية، إضافة إلى علاقات النسب والقرابة بين الأردنيين والشعوب العربية المجاورة. وكذلك يمكن تفسير ظاهرة ارتفاع نسبة السياح الأوربيين والأمريكيين القادمين إلى كون معظمهم يأتي لزيارة الأماكن المقدسة في الضفة الغربية، والأماكن المنتشرة في معظم أرجاء المملكة (صادق، ١٩٧٨، ص٣٥). لقد حافظ الأردن في المدة ١٩٤٩-١٩٦٧م على الأماكن المقدسة، وشجعت الحكومة الأردنية على الاستثمار السياحي بموجب قانون رقم ١٧ لعام ١٩٦٠؛ إذ بلغ عدد الفنادق المصنفة وأماكن النوم في الأردن ٨٧ فندقا ومكان نوم، منها ٧٣ في الضفة الغربية، وذلك في عام ١٩٦٧ (صلاح الدين، ١٩٩٦، ص٣١).

كما بلغ مجموع الأدلاء السياحيين الذين رخص لهم للعمل وفقا لنظام أدلاء السياح ومراقبتهم رقم ٤٨ لسنة ١٩٦٦، بلغ ٢١٥ دليلا، منهم ٢٠٢ دليل في الضفة الغربية وثلاثة أدلاء في الضفة الشرقية من الأردن (سلطة السياحة الأردنية، ١٩٦٨، ص٢٧).

وبعد أن أصبح نظام متاجر التحف الشرقية رقم ٤٧ لسنة ١٩٦٦ نافذ المفعول، قامت الوزارة فى خلال سنة ١٩٦٧ بترخيص ١٦١ متجرا للتحف الشرقية تطبيقا لهذا النظام، منها ١٥٠ متجرا فى الضفة الغربية، و١١ متجرا فى الضفة الشرقية، عدا ٢٠ مصنعا للتحف الشرقية فى مدن بيت لحم والقدس وبيت ساحور (سلطة السياحة الأردنية، ١٩٦٨، ص١٨). فكل ذلك يدل على التطور الذى طرأ على قطاع السياحة فى الضفة الغربية التى كانت آنذاك جزءا من المملكة الأردنية الهاشمية، وإن كان التطور ليس على المستوى المطلوب.

وقد أصيب هذا القطاع بضربة كبيرة بعد حرب عام ١٩٦٧، وسقوط بقية الأراضى العربية تحت الاحتلال، فلقد خسر هذا القطاع موردا أساسيا من موارده بانقطاع السياح العرب عن زيارة فلسطين عامة، والحجاج المسلمين بشكل خاص الذين كانوا يفدون بأعداد كبيرة تصل أحيانا إلى عشرات الآلاف سنويا، لزيارة الأراضى المقدسة بوصفها جزءا من أداء فريضة الحج، ولم يعوض هذا الجانب، ولم تتم محاولات لإيجاد البدائل.

وتركت الأحداث التى مرت بها المنطقة فى عام ١٩٦٧ تأثيرها المباشر فى السياحة فى المملكة الأردنية الهاشمية التى كانت الضفة الغربية جزءا منها آنذاك؛ إذ شهدت تراجعا وانكماشا للحركة السياحية، وانخفض عدد السياح القادمين إلى المملكة فى العام المباشر للحرب، وانخفض معه الدخل السياحى الإجمالى بنسبة ٦١٪ للفترة ذاتها، مقارنة مع العام المباشر قبل الحرب (صادق، ١٩٧٨، ص٤٠).

ويلاحظ أن الأحداث السياسية التى مرت بها المنطقة، أرخت بظلالها على الحركة السياحية فيها، خاصة القادمة منها إلى الضفة الغربية. وقد شهدت منطقة الشرق الأوسط انخفاضا فى الحركة السياحية فى عام ١٩٦٧ بلغت نسبته ٣٠٪ عما كانت عليه فى عام ١٩٦٦؛ إذ بلغ عدد السياح الذين قدموا إلى

المنطقة في عام ١٩٦٧، ٢,٤٩٠,٠٠٠ سائح، في حين أن عددهم في عام ١٩٦٦ وصل إلى ٣,٥٣٣,٠٠٠ سائح.

أما بالنسبة إلى حجم الحركة السياحية إلى الضفة الغربية في خلال الفترة نفسها التي كانت في خلالها الضفة الغربية جزءا من المملكة الأردنية الهاشمية، فقد شهدت انخفاضا واضحا في الحركة السياحية، لاسيما وأن نسبة الانخفاض في الحركة السياحية إلى الأردن كانت معادلة لنسبة الانخفاض في المنطقة، فقد هبط عدد السياح القادمين من ٦١٦,٧٨٤ سائحا في عام ١٩٦٦ إلى ٤٣٥,٦٣٣ سائحا في عام ١٩٦٧؛ أي بنسبة بلغت حوالي ٣١٪، وقع معظمها في خلال الأشهر السبعة الأخيرة التي تلت العدوان الصهيوني الماكر على الأمة العربية؛ إذ بلغت نسبة الانخفاض ٥٩٪، أما في الأشهر الخمسة التي سبقت العدوان؛ فإن نسبة الانخفاض لم تتجاوز ٤٪ فقط (سلطة السياحة الأردنية، ١٩٦٨، ص١٥).

أما في قطاع غزة الذي خضع للإدارة المصرية، فقد تمتع بدرجة من الاستقلالية بوصفه منطقة فلسطينية في إطار الإدارة المصرية؛ لذا كانت تأثيرات السياسة الاقتصادية المصرية في الخمسينيات والستينيات في القطاع غير مباشرة، ووقع القطاع اقتصاديا تحت تأثير كبار أصحاب الأراضي وكبار التجار. وشجع عدم شمول القطاع للقيود المفروضة في مصر على تبديل العملة والتجارة الخارجية إلى تحويل القطاع إلى مصدر للسلع الكمالية إلى مصر، كذلك ساعد وجود سوق حرة في ميناء غزة آنذاك، على تحويله إلى سوق لأعداد متزايدة من السائحين المصريين (هلال، ١٩٩٥، ص١٤٦).

ولم تتوافر إحصاءات دقيقة عن الحركة السياحية في قطاع غزة، في ظل الإدارة المصرية، غير أن السياحة الدولية كانت محدودة في تلك الفترة، كما يؤكد بعض المعاصرين، وكانت هناك حركة سياحية داخلية نشطية نسبيا في داخل القطاع مقارنة بالسياحة الدولية.

حركة السياحة فى الضفة الغربية وقطاع غزة تحت الاحتلال الإسرائيلى:

أدى وقوع الضفة الغربية وقطاع غزة تحت الاحتلال الإسرائيلى، إلى اضطراب الأمن فيها. ويلاحظ أنه فى سنوات الاحتلال ـ لم يطرأ أى تغيير يذكر على البنية السياحية فى الضفة الغربية وقطاع غزة، بل إنه شهد تراجعا ملموسا أثر بصورة واضحة فى النشاط السياحى فيها (حماد وعيد، ٢٠٠٧، ص٧٢).

وقادت الإجراءات الإسرائيلية فى الأراضى الفلسطينية إلى حالة من الركود السياحى، فقد انخفض عدد الفنادق فى الضفة الغربية على سبيل المثال من ٥٩ فندقا سنة ١٩٦٤، منها ٤٠ فندقا فى القدس، إلى ٥٢ فندقا سنة ١٩٨٥، منها ٣٦ فندقا فى القدس، وانخفض عدد الفنادق فى الضفة الغربية - ليس من بينها القدس - من ٢٩ فندقا فى سنة ١٩٧٠، إلى ١٦ فندقا فى سنة ١٩٨٤.

وعلى صعيد النزلاء، انخفض عدد نزلاء فنادق الضفة الغربية - ليس من بينها القدس - فى سنة ١٩٨٤، عما كان عليه سنة ١٩٦٨ بنسبة ٤٨.٦٪، كما انخفضت نسبة حجز الأسرة فى فنادق الضفة الغربية - ليس من بينها القدس - فى سنة ١٩٨٤، عما كانت عليه سنة ١٩٦٨ بنسبة ٣٤.٧٪.

وارتفعت وتيرة السياحة إلى الأراضى المقدسة بعد انتهاء الأعمال الحربية فى عام ١٩٦٧. ففى خلال الفترة من سبتمبر / أيلول ١٩٦٧، حتى سبتمبر / أيلول ١٩٦٨، قدم إلى الكيان الصهيونى ٤٠٠ ألف سائح، كانت نسبة اليهود بينهم ٥٣٪ والمسيحيين ٣٨٪ (الزبيدى، ١٩٨٨، ص١٦٢).

ولجأت سلطات الاحتلال الإسرائيلى إلى مختلف الإجراءات والوسائل من أجل تدمير الحركة السياحية الفلسطينية، وجعلها تابعة لحركة السياحة الإسرائيلية، وذلك لإدراك الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة أن السياحة تدر على "إسرائيل" دخلا كبيرا من العملات الأجنبية، ثانى أكبر مورد للعملات الأجنبية فى إسرائيل (سعادة، ١٩٨٨، ص٧٦).

ويلاحظ تذبذب أعداد السياح القادمين إلى فلسطين، في ظل الاحتلال الإسرائيلي، جراء الظروف السياسية غير المستقرة التي سادت المنطقة، منذ وقوعها تحت الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٦٧، والظروف الأمنية التي طرأت.

وهكذا نلاحظ أن حرب ١٩٨٢ أدت إلى انخفاض أعداد السياح القادمين إلى فلسطين، وكذلك بعد انطلاق الانتفاضة الأولى سنة ١٩٨٧، فتشير التقارير الفلسطينية إلى انخفاض عدد الفنادق العاملة في الضفة الغربية، باستثناء القدس إلى ستة فنادق في عام ١٩٩٠، مقابل ٢٩ فندقا في عام ١٩٧٠، وإلى ٣٤ فندقا في شرقي القدس، في خلال الفترة نفسها، مقابل ٧٠ فندقا في الضفة الغربية، من ضمنها القدس الشريف في عام ١٩٦٩، كذلك الحال في قطاع غزة؛ فقد تم إغلاق ٤ فنادق منذ عام ١٩٦٩، حتى عام ١٩٩٠، ليبقى منها فندقان فقط مع نهاية عام ١٩٩٠.

وبرغم ذلك، فإن هذه الأرقام تعطي مؤشرات عن الزيادة المتوقعة للسياح إلى فلسطين عامة، والضفة الغربية خاصة، في حال حدوث استقرار سياسي وأمني في المنطقة.

حركة السياحة في الضفة الغربية وقطاع غزة تحت السلطة الوطنية الفلسطينية:

شكل رقم (١٠)

مع بدء عملية السلام في الشرق الأوسط في عام ١٩٩١، بدأت النقلة النوعية في مجيء السياح إلى الأراضي الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع

غزة، وما اتخذ من إجراءات إدارية، تمثلت فى تقسيم الضفة الغربية وقطاع غزة إلى أقسام إدارية يوضحها شكل رقم (١١) الآتى:

شكل رقم (١١)

الأقسام الإدارية للضفة الغربية وقطاع غزة

بدأت النقلة النوعية مع مجيء السياح إلى الأراضى الفلسطينية فى الضفة الغربية وقطاع غزة؛ إذ فاق عدد السياح الذين أموا كنيسة المهد فى بيت لحم

عام ١٩٩٥، مليون سائح، علما أن ١٠٪ من هذا العدد من السياح يزورون الخليل، وأن ٣٠٠ ألف يؤمون المواقع الأثرية فى أريحا؛ مثل تل السلطان (حماد، ١٩٩٤، ص٤٥).

وقد بلغت العوائد الكلية للقطاع السياحى فى الضفة والقطاع باستثناء القدس الشرقية فى عام ١٩٩٥ حوالى ٢٦ مليون دولار، مقارنة بـ ١٥٥ مليون فى القدس الشرقية، و ٢٩٣٠ مليون دولار فى إسرائيل (الخواجا، ١٩٩٧، ص٦٣).

وتبذل السلطة الفلسطينية جهودا حثيثة لدعم صناعة السياحة فى الضفة الغربية وتنشيطها، ومختلف الأراضى الفلسطينية، وذلك من خلال تقديم التسهيلات للمستثمرين فى المشاريع السياحية المختلفة، ويتضمن ذلك إقامة فنادق جديدة، فقد ارتفع عدد الفنادق السياحية فى الأراضى الفلسطينية فى نهاية عام ٢٠٠٠، إلى ١٠٦ فنادق، يتوافر فيها ٤,٧٠٨ غرفة متاحة، وتضم ١٠,٠٦٣ سريرا متاحا، كما بلغ إجمالى عدد ليالى المبيت ١,٠١٦,٦٨٣ ليلة فى جميع الفنادق العاملة فى الأراضى الفلسطينية؛ منها ٤٨,٢٤١ ليلة فى قطاع غزة، كما بلغ مجموع النزلاء حسب الجنسية فى خلال عام ٢٠٠٠ أيضا ٣٣٥,٧١١ نزيلا (قديح، ٢٠٠٠، ص٦). كما عملت السلطة الوطنية الفلسطينية على الترخيص لكثير من المكاتب السياحية حتى بلغ عدد وكالات السياحة والسفر ٩٢ مكتبا فى الضفة الغربية وقطاع غزة، يوجد من بينها ٣٢ مكتبا سياحيا فى قطاع غزة (الجهاز المركزى للإحصاء الفلسطينى، ٢٠٠١، ص١٩).

شكل رقم (١٢)

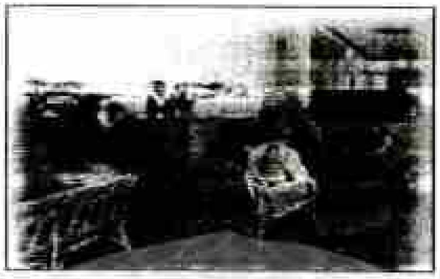

صورة لقاعة استقبال فى احد الفنادق الفلسطينية

شكل رقم (١٣)

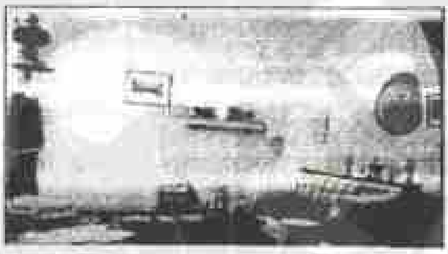

صورة لإحدى الغرف فى احد الفنادق الفلسطينية

وبالرغم من إقامة وزارة للسياحة والآثار للعناية بالشئون السياحية فى فلسطين، فإن دورها مازال محدودا، وذلك بسبب محدودية الإمكانات، والنقص الشديد فى عدد الموظفين المؤهلين العاملين لدى الوزارة، وضعف قدراتهم الإبداعية.

معهد البحوث والدراسات العربية

خـاتمـة:

يتضح مما تقدم أن فلسطين كانت منذ القدم، ومازالت، قبلة للسياح والحجاج والزائرين من مختلف الأصقاع والأجناس والملل.

ولاشك فى أن ازدهار الحركة السياحية وتطورها مرهون بالاستقرار السياسى الذى لن يتحقق إلا بزوال الاحتلال، وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس الشريف، وتعزيز التعاون الإقليمى فى المجال السياحى، مع الدول المجاورة، خاصة مصر والأردن ولبنان.

المصادر والمراجع:

١- أحمد إبراهيم حماد، الحركة السياحية فى مدينة بيت لحم، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٤.

٢- أحمد نجم الدين فليجة، الجغرافية الاقتصادية للبلدان النامية، مركز الإسكندرية للكتاب، ١٩٩٩.

٣- الجهاز المركزى للإحصاء الفلسطينى ٢٠٠١، النشاط الفندقى فى الأراضى الفلسطينية، النشرة السنوية ٢٠٠٠، المجلد السادس، العدد ٥، رام الله، فلسطين.

٤- الموسوعة الفلسطينية، القسم الثانى - الدراسات الخاصة، المجلد الثانى - الدراسات التاريخية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٠.

٥- إياد هشام محمود الصاحب، السامريون الأصل والتاريخ العقيدة والشريعة وأثر البيئة الإسلامية فيهم، الطبعة الأولى، مكتبة دنديس، الخليل - عمان، ٢٠٠٠.

٦- بهجت صبرى، فلسطين خلال الحرب العالمية الأولى وما بعدها ١٩١٤ - ١٩٢٠، جمعية الدراسات الحربية، القدس، ١٩٨٢.

٧- جميل هلال، النظام السياسى الفلسطينى بعد أوسلو، دراسة تحليلية نقدية، الطبعة الأولى، مركز دراسات الشرق الأوسط، عمان، ١٩٩٥.

٨- حمدى الخواجا، الوضع الراهن لقطاع السياحة فى فلسطين ومدى استجابته لمتطلبات التعاون الإقليمى المرتقب، ورشة عمل حول السياحة الإقليمية عام ٢٠٠٠، السياحة الفلسطينية فى الإطار الإقليمى، المركز الفلسطينى للدراسات الإقليمية، الطبعة الأولى ١٩٩٧.

٩- حنا عبد الله يوسف عبد الله جقمان، جولة فى تاريخ الأرض المقدسة من أقدم العصور حتى اليوم، المجلد الرابع، جولة جديدة فى تاريخ بيت لحم والقدس، الطبعة الأولى، بيت المقدس، ٢٠٠٠.

١٠- حنا عبد الله يوسف عبد الله جقمان، جولة في تاريخ الأرض المقدسة من أقدم العصور حتى اليوم، المجلد الثالث، جولة في تاريخ مقدسات بيت المقدس، الطبعة الأولى، بيت المقدس، ١٩٩٩.
١١- حنا عبد الله يوسف عبد الله جقمان، جولة في تاريخ الأرض المقدسة من أقدم العصور حتى اليوم، المجلد الأول، الطبعة الأولى، بيت المقدس، ١٩٩٤.
١٢- خالد سرحان، مشاهدات السياح والحجاج والمستشرقين في فلسطين عبر ٤٠٠٠ عام، مجلة صامد، السنة العاشرة، العدد ٧١، كانون الثاني، شباط، آذار، ١٩٨٨.
١٣- سلطة السياحة الأردنية - عمان، التقرير السنوي ١٩٦٢، آب ١٩٦١.
١٤- سعيد عبد الفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى - الجزء الأول - التاريخ السياسي، الطبعة الثانية، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦١.
١٥- عايد أحمد عايد صلاح الدين، السياحة في مدينة القدس، رسالة ماجستير غير منشورة.
١٦- عادل ح. يحيى وآخرون، دليل فلسطين السياحي، دليل تاريخي وأثري، المؤسسة الفلسطينية للتبادل الثقافي، رام الله، ٢٠٠٠.
١٧- عبد العزيز محمود، الخانات والأسواق في فلسطين، عرض تاريخي اقتصادي وعمراني، مجلة البيان، المجلد الثاني، العدد الأول، جامعة آل البيت، عمان، شتاء ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
١٨- عبد القادر إبراهيم حماد وآخرون، دراسات في الجغرافيا البشرية، الطبعة الأولى، دار اليازجي للطباعة والنشر، غزة، ٢٠٠٦.
١٩- عبد القادر إبراهيم حماد وصلاح الدين إبراهيم حماد، دراسات في السياحة الفلسطينية والتنمية، الطبعة الأولى، مكتبة القادسية للنشر والتوزيع، خان يونس، ٢٠٠٨.

٢٠- عبد القادر إبراهيم حماد وناصر عيد، مدخل إلى جغرافية السياحة، الطبعة الأولى، دار اليازجي للطباعة والنشر، غزة، ٢٠٠٧.
٢١- عمر سعادة، المقاومة الفلسطينية وقطاع السياحة الإسرائيلي، مجلة شئون تنموية، السنة العاشرة، العدد ٧١، دار الكرمل للنشر والتوزيع، عمان، كانون الثاني، شباط، آذار ١٩٨٦.
٢٢- فوزي صادق، اقتصاديات السياحة في الأردن ١٩٥٠-١٩٧٦، الجمعية العلمية الملكية، الدائرة الاقتصادية، تشرين الأول، ١٩٧١، ملحق رقم ١.
٢٣- ليلى الأفندي، القاهرة ومصر الوسطى، دراسة في جغرافية السياحة، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٨٣.
٢٤- ماجد الزبيدي، الحركة الفندقية في الضفة الغربية المحتلة، مجلة صامد، السنة العاشرة، العدد ٧١، دار الكرمل للنشر والتوزيع، عمان، كانون الثاني، ١٩٨٨.
٢٥- محبات إمام، جغرافية الترويح، كلية السياحة والفنادق، جامعة حلوان، د.ت.
٢٦- محمد الحافظ النقر، مدينة القدس في فترة الاحتلال الإفرنجي (١٠٩٩-١١٨٧م)، مجلة البيان، المجلد الثاني، العدد الأول، جامعة آل البيت، عمان، شتاء ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
٢٧- مطيع يوسف محمد قيصي، دراسة في جغرافية السياحة في منطقة أريحا والبحر الميت، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، نابلس.
٢٨- ميسر أبو علي، مقومات السياحة في فلسطين، مجلة صامد الاقتصادي، العدد ٧١، كانون الثاني- شباط - آذار ١٩٨٨، دار الكرمل للنشر والتوزيع، عمان.

٢٩- نمر سرحان، المواسم كنموذج للسياحة الداخلية فى فلسطين، مجلة صامد الاقتصادى، العدد ٧١، كانون الثانى- شباط - آذار ١٩٨٨، دار الكرمل للنشر والتوزيع، عمان.
٣٠- هيئة الموسوعة الفلسطينية، الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الثانى، دمشق ١٩٩٦.
٣١- وائل قديح، الخدمات السياحية فى فلسطين، مركز التخطيط الفلسطينى، غزة، ٢٠٠٠.

معهد البحوث والدراسات العربية
عضو اتحاد الجامعات العربية